مونتغمري وات

في تاريخ اسبانيا الاسلامية

(مع فصل في الأدب بقلم بيير كاكيا)

ترجمة:

د. محمد رضا المصري

شركة المطبوعات

للتوزيع والنشر

بناية الوهاد ـ شارع جانْ ـ دارك

ص.ب. ٨٣٧٥

بيروت ـ لبنان

هاتف: ٣٤٤٢٣٦ – ٣٤٥٤٦٠ / ٢ – ٣٥٠٧٢١

فاكس: ٥٢٢١٠٧ – ٩ – ٣٥٧ / ٦٠٢٠٢٩ – ٩٦١١

تلكس: ٢٢٦٦١

الطبعة الاولى ١٩٩٤

تصميم الغلاف: عباس مكي

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi

في تاريخ اسبانيا الاسلامية

تأليف: مونتغمري وات

(مع فصل في الأدب بقلم بيير كاكيا)

مقدمة المترجم

يقدم «مونتغمري وات»، في هذا الكتاب، موجزاً في تاريخ اسبانيا الاسلامية السياسي والحضاري، مع فصول في الأدب الأندلسي بقلم المستشرق بيير كاكيا. والكتاب، بقسميه، التاريخي والأدبي، لا يبدو أنه يحاول الاحاطة بكل حقب التاريخ الأندلسي وحوادثها، ولا يبدو أن يكون بديلاً عن تلك التواريخ التي تتبع تفاصيل الحوادث وتطورها، وتحاول أن تعيد نسج كل ما جرى. بل هو، كما يتبيّن من عنوانه، تاريخ معين عُرِض بطريقة خاصة، يضاف إلى التواريخ العديدة التي خصصت لزمن المسلمين في اسبانيا، والتي وصفها القدامى والمحدثون، مثل ابن عذارى، وابن الخطيب، ودوزي، وليفي بروفنسال، ومحمد عبد الله عنّان، وسواهم. لكنه يقدم لمحة تشمل الحقب الممتدة من الفتح حتى نهاية الوجود الاسلامي بطرد الموريسكيين منها، وتقتصر على الأساسي من الحوادث، والظواهر، والخصائص التي تكشف عن حقائق هامة، ونواميس تحكمت بمصير الدولة الأندلسيّة بخاصة، والدولة العربية الاسلامية بعامة.

انه يحلل طبيعة الدولة العربية، ناظراً في الأفكار والمفاهيم التي قامت عليها، مُولياً التاريخ الاجتماعي اهتماماً خاصاً من دون أن يهمل التحقيق في الحوادث التاريخية الكبرى وتواريخها وأسبابها ونتائجها. ولذلك، فإن الذي يميز هذه الدراسة بصفة خاصة: أنها دراسة غير وصفية تصور من الخارج وتقف عند حدود السرد والرواية، بل هي دراسة في العمق رائدها التحليل والتفسير والتعليل، أي الكشف عن النواميس والعلل الكامنة وراء الحوادث والظواهر. وإيجازها لا يحصرها ضمن دائرة اهتمام القارىء العادي، بل تتجاوز هذه الدائرة لتثير اهتمام المختصين بالدراسات العربية ـ الاسلامية والأندلسية بنوع خاص.

يرى وات أن الدولة العربية كانت عبارة عن قبيلة، أو حلف يضم مجموعة من

القبائل، وأنها، في علاقاتها مع الدول الأخرى المعاصرة، لم تستطع، في جوهرها، أن تتجاوز كثيراً العلاقات التي كانت تربط القبيلة بحلفائها أو خصومها من القبائل الأخرى. وفي أحسن الأحوال، كانت تلك العلاقات صورة مطوّرة من علاقات القبائل بعضها ببعض، مستوحاةً، إلى حد بعيد، من الشكل الذي اتخذته تلك العلاقات، إبّان نشوء الدولة الاسلامية في المدينة، أيام النبي محمد (ﷺ). وانطلاقاً من هذا التصور، يحاول أن يعلل انهيار الدولة الأندلسية التي هي، في نظره، نموذج من الدولة العربية ـ الاسلامية في خطوطها وملامحها العامة. والسبب الأساسي لهذا الإنهيار، في رأيه، هو الإخفاق في تكييف الأفكار الاسلامية المتعلقة ببناء الدولة مع مشاكل العصر، وعدم وجود طبقة وسطى راسخة الأساس ومهتمة بالمحافظة على حكومة مركزية فاعلة.

غير أن وات، على الرغم من اعتباره دولة الأندلس، نموذجاً من الدولة العربية ـ الاسلامية، فانه يجهد في ابراز الطابع الخاص لهذه الدولة التي قامت على بقعة مسرفة البعد عن مهد العروبة والاسلام، لها صورة اجتماعية وسياسية وثقافية مختلفة عما عرفه الفاتحون في سائر الأقطار. فضلاً عن ذلك، كان الفاتحون، وبخاصة العرب، حَمَلة الراية وبُناة الدولة وإيديولوجيا المجتمع، أقلية بعيدة عن جذورها الجغرافية والإتنية، في ذلك البحر الغامر من البشر والعادات والتقاليد والأعراف الخ... وعلى رأس ما يميز الأندلس، أو اسبانيا الاسلامية، تبرز الأهمية التي تتبوأها هناك الروابط الاجتماعية والسياسية وأواصر الرحم والدم بين الأسر العريقة المولدة وانسبائها من مسيحيي الشمال، وأثر ذلك على العلاقات السياسية وتطور الحوادث في بعض مناطق الشمال الأندلسي المتصل بأراضي النصارى المستقلين عن الدولة الاسلامية. ولعل من أبرز تلك العلاقات غير المألوفة، في الدولة والمجتمع الإسلامي، تطبيق أعراف غير اسلامية في إسبانيا الاسلامية المتزمتة، الحريصة على وحدة المذهب بين رعاياها المسلمين، مثل دخول أسر مسيحية في طاعة أسر إسلامية، وولاء أسر اسلامية لأخرى مسيحية تربطها بها أواصر القربى؛ مما يثبت، في بعض الأحوال، تقدم العامل الاجتماعي أو السياسي على

العامل الديني، وعدم قدرة الدين على محو كل الروابط الأخرى التي كانت تشد الجماعات أو الأفراد بعضهم إلى بعض، قبل اعتناق بعض أفرادها للإسلام، كالتي كانت تربط بني قسي بحكام مملكة نبرة النصرانية.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الكاتب دائم التنبه إلى كل وضع يرى أن الأندلس تميزت به وكان له أثر على أحوالها المادية أو الروحية. فهو، على هذا الصعيد، يرى أن للبربر وضعاً خاصاً وأثراً هاماً في توجيه الحياة الفكرية في الأندلس، إذ ساعدوا، في نظره، على منع انتشار البدع، لأنهم اضطروا الى التضامن مع العرب، لمواجهة قدْرٍ من العدائية كانوا يلقونه من جانب السكان الأصليين(ص٥٦).

كذلك يحاول المؤلف أن يحلل الأسس الفكرية والاجتماعية للدول البربرية التي حكمت الأندلس، مثل دولتي المرابطين والموحدين وتفاعل الأندلس معها.

أما الوجه الحضاري لإسبانيا الإسلامية، فيرسم المؤلف ملامحه الفكرية والروحية والعلمية والفنية، في لمحات مأخوذة من مراحل في تاريخها، يبدو انه يعتبرها أساسية، ويوردها على النحو التالي: الانجازات الحضارية في ظل الأمويين، العظمة الحضارية إبّان الانحطاط السياسي (أواخر عصر الموحدين)؛ الأدب والفن في العصر الغرناطي (نهاية إسبانيا الاسلامية)، وأخيراً يحاول أن يصدر حكماً عاماً على أهمية إسبانيا الإسلامية الخاصة ودورها في التاريخ الأوروبي مستجلياً عظمتها الذاتية.

وفي كل الفصول التي كتبها «وات» يهيمن عليه هاجس التفسير والتعليل. فهو حريص على تعليل كل ظاهرة أو حادثة بل كل شيء، مما لا يؤدي به في بعض الأحيان الى تكوين نظرة عامة متماسكة جلية المرتكزات والنواميس، كما أن اغفال الكثير من التفاصيل التاريخية والحوادث يزرع البلبلة أحياناً في ذهن القارىء غير المطلع والعاجز، أمام الصورة المتقطعة، عن ربط خطوطها، بعضها ببعض. وكأنى بالكاتب هنا ينسى هذا القارىء، ويتوجه، بكلامه، إلى المتخصصين الذين هم على علم بهذه التفاصيل ويرمون، من القراءة، إلى تفسير التاريخ لا الاطلاع على ما حفل به الكتاب من وقائع وظواهر.

غير أن تاريخ اسبانيا الاسلامية، كما يراه «وات»، وعلى الرغم من إيجازه وعدم خلوه من آراء ونظرات قد لا نوافقه عليها، إنما يتسم بكثير من المزايا التي قد لا تتوافر في العديد من الكتب التي تناولت الموضوع ذاته. إنه، قبل كل شيء، نظرة شاملة، ودراسة في العمق، رائدها فهم طبيعة الحضارة العربية الاسلامية من خلال تعميق صورة من صورها تحققت في أحد الأقطار التي كانت ميداناً لها. وهو، في محاولته استجلاء هذه الصورة، إنما يقدم غير دليل على الإنصاف والحياد والتجرد عن الهوى. بل يبدي تعاطفاً مع العرب وتقديراً لمآثرهم الحضارية. وفي كثير من الأحيان، يلتمس الأعذار لفشلهم وهزائمهم، ويقلل من أهميتها، على عكس ما يفعله العديد من الدارسين الأوروبيين. ولئن طغى على دراسته تفكيره الوضعي، ونزعته المادية، فهي، على الإجمال، دراسة قيمة، ونظرة من الخارج فيها فوائد جمة للذين غُذُّوا بلبان الحضارة العربية ـ الإسلامية، وعاشوا حياتهم الفكرية كلها في مدى تأثيرها، لكي ينظروا اليها، ولو منهجياً، ولبعض الوقت، من زوايا جديدة، وتحت أضواء مختلفة. وفي اعتقادي أن في ذلك إخصاباً لفهمهم اياها، ومزيداً من القدرة للدفاع عنها.

الفصول الأدبية

يتوزع القسم الخاص بالشعر والأدب في ثلاثة فصول:

أولها عند الحديث عن الإنجازات الحضارية في ظل أمويي الأندلس، بعنوان: الحياة الفكرية: الشعر والأدب؛

والثاني بعد الفراغ من الكلام عن الحياة السياسية في عصر الموحدين وتقدم خطوات الاسترداد، وذلك بعنوانين هما: الشعر؛ النثر والأدب والفيلولوجيا.

أما الفصل الثالث، فيتحدث عن الأدب في العصر النَّصْري الذي هو مرحلة تقهقر وانحطاط.

يبدأ الفصل الأول بلمحة سريعة عن الشعر العربي في المشرق، منذ الجاهلية حتى العصر العباسي؛ ويتركز فيها الحديث حول خصائصه العامة وما طرأ عليه من تطور، بعد خروج العرب من شبه جزيرتهم، وإقامتهم في الحواضر الجديدة، واختلاطهم بالأمم الأخرى. كما ينبه إلى دور الشاعر الثانوي، وبقائه تابعاً للحكام والسادة، وأثر ذلك في توجهه الفني وهيمنة نماذج فنية موجهة إلى النخبة تضع التقليد الأدبي وأناقة التعبير فوق أي شيء آخر، مما أدى الى استمرار أساليب الشعر وتجانسه في المناخات المختلفة.

بعد هذا التمهيد، ينتقل إلى الحديث عن الشعر الأندلسي في المرحلة المذكورة، فيستعرضه بسرعة، متوقفاً عند قضايا أساسية كان لها تأثير كبير في المنحى الذي اتبعه الشعر الأندلسي في نموّه وتطوّره، مثل التوجه الفكري والروحي نحو المشرق ووفود المشارقة، وعدم تأخر المؤلفات المشرقية في الوصول إلى أيدي الأندلسيين؛ ممّا أوجد اتصالاً ثقافياً وحضارياً وثيقاً بين المشرق والأندلس، وحال بين الشعر الأندلسي والتطور مستقلاً عن التقليد المشرقي.